رحيل

جبور الدويهي النسّاج اللبناني يُسلّم أثوابه

الكتابة للاقتصاص من الحرب

كتب الروائي اللبناني، الذي غادر عالمنا أول أمس، روايات عديدة كانت الحرب فضاءً لها، وهو الذي اعتبر أنّه اقتصّ مِن الحرب بالكتابة عنها، وانشغل باللحاق بالإنسان كي يُخرجه عن إرادة الجماعة التي تدفع بالأفراد إلى الهلاك لتستمر عنفة الموت بالدوران

سومر شحادة

منح الروائي اللبناني جبور الدويهي (1949 - 2021) قرّاءهُ أكثر دروس الحرب الأهلية اللبنانية إنسانيّة بما تركهُ في رواياتهِ، التي على الرغم من كونها تحدث في بيئة صراعاتٍ واقتتال، إلّا أنّه استخلص منها ما هو مشترك وإنساني، واحتفى بقيم الصداقة والحُبّ والسلام.

كتابة الدويهي نسيجٌ منتزعٌ من الحياة اللبنانية ومتآلفٌ معها بكلّ تشعّباتها وتعقيداتها في بلدٍ يعيشُ على حافة الانفجار دائماً. بالتالي، يظهر أشخاصه بصورةِ أنّهم على أهبّة الرحيل. على الرغم من ارتباطهم بالمكان، فهم يرحلون، لكنّهم يعودون بصورةٍ محتّمة، إذ لا يقوون على مغادرة المكان، فهو مثلهم، هشّ ويحتاج إلى من يسانده، إلى من يدعمه ويتمسّك بهِ، ويقتتل عليهِ، وقد أورثهم المكان آفاته ذاتها، أو أنّ البشر هم من تبادلوا عصابيتهم مع الأمكنة.

فهم إمّا عائدون إلى لبنان يبحثون عن ملكية قديمة، عن مجد قديم آفل، أو يتجوّلون بين الفنادقِ يبحثون عن الحُبّ، ويمارسونه تعويذةً من أجل الاستمرار.

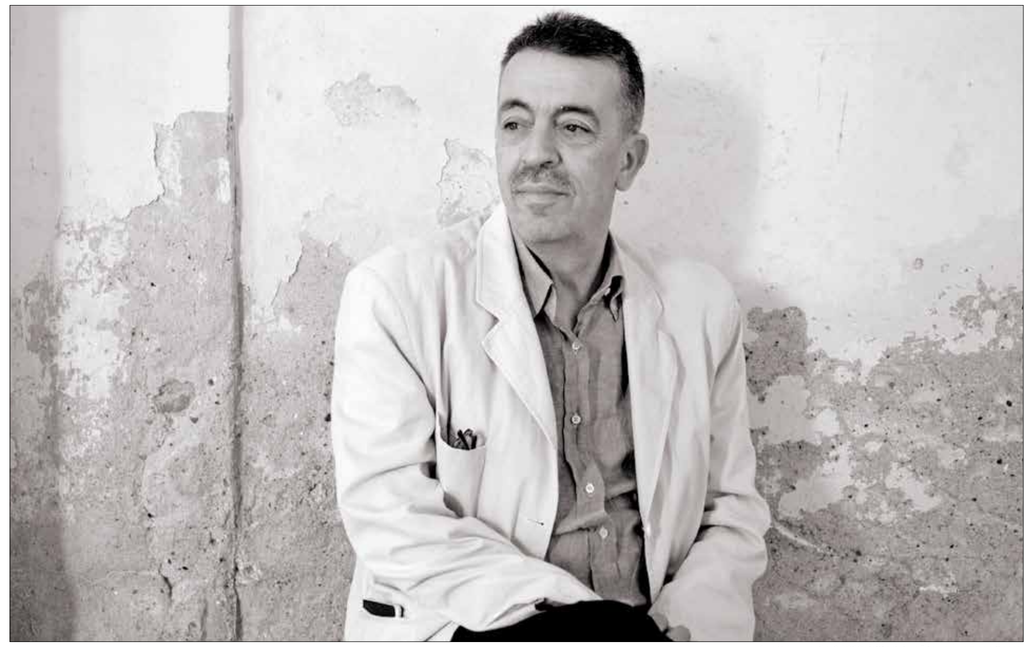

نجد شخصياته تريد من أعماقها أن تستمر بالعيش، من غير أن تقوى على ذلك، فهي مباحة أمام القتل، مباحةٌ أمام السرقة والجريمة والاستغلال الحزبي. بتلك الرّقّةِ والدِعة رسم الدويهي عالمَهُ الروائي، باستخدام شخصيات تعرف وتشعر بكلّ ما يدور من حولها، لكنْ يَشقُّ عليها أن تعترف. قبل أن يفضحها الروائي بمشاهد احتفالية، تذكي الموت والجنس والفراق.

تمثل روايتهُ «شريد المنازل» (2010) رواية نموذجية عن الحرب الأهلية اللبنانية، فنظام، الشخصية الأساسية في الرواية، من غير دين على الهوية، مسلم بالولادة ومسيحي بالعمادة بعدما نشأ في كنف عائلة مسيحية. أحاطت العائلةُ المسيحية الطفلَ المسلم بالحُبّ والرعاية، وعندما نزل كي يدرس في بيروت، جعل الدويهي من شقّتهِ المُستأجرة مختبراً لكلّ التناقضات التي عرفها جيله، ولاحقاً فجّرت الحرب. كان نظام يحمل سلسلتين في رقبتهِ؛ واحدة تشير إلى انتمائه المسيحي، وأُخرى إلى انتمائه الإسلامي. بذلك فهو يسخر من الهويات. عندما يفقد نظام أوراقه الثبوتية يشعر بأنّه قد تحرّر من زيف الانتماءات، لكنّه سوف يُقتَل ما إن يَخرج عن انتماءات الحرب.

يخبرنا الدويهي عن استحالة النجاة من الحرب بالنسبة إلى من بقي في لبنان. إذ حتى تلك الحالة النّادرة التي رسمها في روايتهِ على نحو محكم وآسر، كانت صورةً لبيروت المشتهاة التي ما لبثت أن غرقت في أتون الاقتتال. كما يشيرُ إلى قدرة البشر على إلغاء بعضهم، ويجعل من موتِ المثال/ نظام إذعاناً للكراهية والعصبيات.

في روايتهِ «عين ورده» (2002) أيضاً يتحدّث الدويهي عن وقف درزي عالق، ملكيتهُ ضائعة بين العائلات. فالمنزل إرثٌ يَختَصِم عليهِ مُلّاكهُ، ويدلّ عليه الراوي باستخدام إشارةٍ طرقية إلى أنّ الطريق إليهِ «لا يؤدي إلى مكان»، يترك الدويهي ذلك اللامكان الذي تتنازع عليهِ الشخصيات مسرحاً لبناء شخصية منعزلة وغريبة، وهي شخصية رضا، ويعرض باستخدامهِ قصّة حبّ عذري متينة تنمو عبر القراءات المتبادلة للكتب والاتصالات المتباعدة، ثمّ تغيب في ظلال الحرب. كما يشهد المنزل، اللامكان، الذي هو لبنان، نزاعاتٍ انتخابية يُستخدَم فيها العرب. وتتأمّل والدة رضا ابنها، الذي فُتن بفتاةِ العرب أخيراً، مثلما تتأمّل الخراب.

إنّ رضا مثالٌ عن استخدام الدويهي للبشر، بتلقائية، كي يصف حَالَ الأمكنة ومآلاتها. ويؤكد الروائي اللبناني في أكثر من مناسبة على أنّه يكتب عمّا يعرف. كما لو أنّه كتب عن أمكنة ألف خرابها، وعرفها عن كثب من غير أن يقوى على المغادرة... أمّا عن الحرب فأبلغ مشاهدها؛ تصويره المجتمعين قرب المذياع وهم يسترقون السمع على مكالمة أُمّ ترجو من ابنها أن يقاوم الموت.

> نسيجٌ روائي منتزَعٌ من الحياة اللبنانية ومتآلفٌ معها

> نصُّه يخلو من الزخرفة والتكلّف، مباشرٌ وحميمي وعذب

هكذا تحضرُ الحرب في روايات الدويهي، في ترقّب من يراقبها تقترب منه، في ترقّب قلق يجعل من الشخصيات مسلوبة وطيّعة إزّاء مصائرها. في روايتهِ «ملك الهند» (2017) ينقل صراعات شخصياتهِ إلى قطعة أرض، أيضاً زكريا سوف ينتهي مقتولاً أو منتحراً، لا يؤكّد لنا الدويهي أيّهما، إذ بعد عودة زكريا من المهجر إلى لبنان الذي يحبّ يدخل شرك الخصام اللبناني الذي تحمله الطوائف والعائلات. إذاً؛ الدويهي يصنع أبطالاً جميلين، لا يمكن للقارئ ألّا يغرم بهم، ثمّ بعد ذلك يقتلهم، من غير أن ينجح الحُبّ الذي كلّلهم بهِ في أن يكون شفيعاً لهم.

يتّكئ الروائي اللبناني على الوقائع التاريخية كي يبني نصوصاً متخيّلة، مثل واقعة الاقتتال المسيحي- المسيحي إثر توتّر انتخابي سنة 1957، الحادثة التي بنى عليها روايته «مطر حزيران» (2006) ويقول إنّها بروفة للحرب الأهلية التي لن تتأخّر في المجيء. غير أنّ الدويهي يبقى رهيناً للواقع، ويصنع النهايات التي يصنعها الواقع. هو فقط يرافق الأحداث، يُظهرُها، ويدفع بها إلى نسيج الكتابة المتخيَّل باستخدامِ لغةٍ مشهودٍ لها؛ لغتهُ منسابة، جمله سلسة ومفرداته بسيطة، نصه يخلو من الزخرفة والتكلّف، مباشرٌ وحميمي وعذب.

للدويهي روايات عديدة كانت الحرب فضاءً لها، وقد اعتبر أنّه اقتصّ من الحرب بالكتابة عنها. واعتبر أيضاً أنّ الكتابة تتغذّى على صراع الهويات الذي ينشأ من نظرةِ جماعة إلى أُخرى. وضمن ما يدعوه صاحب «حي الأمريكان» (2014) «متحف العصبيات» نراه منشغلاً باللحاق بالإنسان، كي يخرجه عن إرادة الجماعة التي تدفع بالأفراد إلى الهلاك لتستمر عنفة الموت بالدوران. ليقف الدويهي بحصيلتهِ الروائية في مقابل ذلك الموت الذي حضّرتهُ الجماعات لأبنائها.

يحمل جبور الدويهي إجازة بالأدب الفرنسي ودكتوراه في الأدب المقارن، وقد عمل لسنوات أستاذاً للأدب الفرنسي في الجامعة اللبنانية، كما ترجم العديد من الأعمال الفرنسية إلى العربية. وأشرف لدورتين على ورشة «آفاق» للكتابة الروائية التي خرّجت عدداً من الأسماء العربية. حاز على جوائز عدّة، وتُرجمت أعماله إلى عددٍ من اللغات.

(كاتب من سورية)

جبور الدويهي في مانتوفا بإيطاليا، 2010 (ليوناردو سيندامو)

بطاقة

أصدر الروائي اللبناني الراحل أوّل أعماله الأدبية عام 1990، وهو مجموعة قصصية بعنوان «الموت بين الأهل نعاس»، قبل أن يُصدر روايته الأولى «اعتدال الخريف» عام 1995، لتليها مجموعة من الروايات مِن بينها: «ريا النهر» (1998)، و«شريد المنازل» (2010)، و«حي الأميركان» (2014)، و«طُبع في بيروت» (2016) و«ملك الهند» (2019)، و«سمّ في الهواء» (2021)، كما صدرت له بالفرنسية قصّة للأطفال بعنوان «روح الغابة» (2001).

قراءة

سمّ في الهواء رواية مَن تُسقط أسماؤهم

آخرُ كلمات الروائي

في روايته الأخيرة الصادرة هذا العام عن «دار الساقي»، يروي الكاتب اللبناني الراحل أحداثاً عاصفة ودموية وقد انطفأ عصفها وزالت فظائعها

عباس بيضون

لا نصل بسرعة إلى تميُّز النمط الروائي لرواية جبّور الدويهي الأخيرة، «سمٌّ في الهواء»، الصادرة عن «دار الساقي». نلاحظ في البداية تجنّب الروائي، الذي رحل عن عالمنا أوّل أمس الجمعة (1949 - 2021)، للتسمية؛ تسمية الأشخاص وحتى تسمية الأماكن. حين يسمّي الراوي فندقاً في المدينة، «بيريت سور مير»، ننتبه إلى أننا قلما وقعنا على أسماء. ستكون للجميع أوصاف أو كنايات بدل أسمائهم، هناك الأب والأم والعمة والخالة، لكن في المقابل لا نعرف اسم شهيد منظّمة التروتسكيين العرب، ولا اسم السبعيني في الفندق، ولا اسم صاحبة الفندق ولا اسم معلّمة الفلسفة، ولا اسم الآشوري.

لبعض هؤلاء أدوارٌ في الرواية، لكن ليس لهم اسم. يمكننا لذلك أن نسمي «سمّ في الهواء» رواية اللا مُسمّين. ليست فقط حكاية أسماء، فالرواية التي هي أخبار الراوي غير المسمّى، لا تزيد عن كونها أخباراً تنتهي في مكانها وزمانها، بدون أن تترك عواقب تتردّد بعدها، وبدون أن تبقى منها علاقات متّصلة. تبدأ الرواية بهذه الحرب الموصولة في البلدة، ليست حرباً حقيقية، إنها ساحات قصف وضحايا؛ مع ذلك، فإن الراوي يغادر بدون أن يبقى لهذه الحرب أثر أو عاقبة في ما استجد بعد رحيل الراوي عن البلدة. في الرواية هناك التوأم اللتان تصله علاقات حبّ وجنس معهما، هاتان لا نعرف جيداً ماذا حلّ بهما في نهايات الرواية وماذا كانت مصائرهما. نعرف أن إحداهما ماتت، لكنّ حكايتهما مع الراوي لا تتّصل ولا نعرف لها عاقبة أو خلاصة، لا نعرف أيضاً مآل منظّمة التروتسكيين العرب؛ لقد استشهد البارز فيها لكن ماذا بعد هذا الاستشهاد؟ ستمرّ المنظّمة في تاريخ الراوي ولن تزيد على أن تكون له تاريخاً، فالوقائع - وهي في معظمها أو كثير منها كبيرة وجامعة - تُتناول في هذه الرواية كتواريخ خاصة وشخصية. فالرواية التي تبدأ بأحداث عاصفة في البلدة، لا تلبث أن تنتقل إلى أحداث عاصفة وإلى حرب أهلية في البلد كله، بدون أن تتعدّى مع ذلك يوميات الراوي ومذكّراته، وبدون أن تبدو أكثر من تفاصيل وقتية في السيرة الخاصة للراوي. لا تظهر أكثر من ذلك حتى حين يشترك هو في أحداث جامعة. حين يعمد الراوي إلى إطلاق النار على الحافلات، لا نفهم موقعه وصلة ذلك بالحرب الأهلية التي شملت البلد. لا نعرف ذلك ولا نرى عواقبه وآثاره ونتائجه، حتى حين يتحوّل إلى انفجار عام كمجزرة السيارات التي تحدث حين اندلعت النار في حافلة. لا نعرف إذا كان ذلك جزءاً من الاقتتال الأهلي، ولا نجد له آثاراً ونتائج، فهو يُطوى كما تُطوى الحرب بكاملها ويتحوّل فحسب إلى خبر شخصي.

ستكون حياة الراوي، بطل الرواية، كلّها على هذا الغرار. لن يكون زواجه من معلّمة الفلسفة مختلفاً عن ذلك. لقد خرّبت المعلمة المجسّم الذي صنعه وانهال هو بالضرب عليها، لكنّ القصة التي بدأت بعلاقة لن تكون هي الأخرى سوى خبر، لن تكون نهايتها مختلفة. نعلم أن المعلّمة تديّنت بعد هذا الحادث ثم تزوّجت آخر بعد أن هجرت تديّنها. لن تكون قصة صاحبة الفندق شيئاً آخر، ولن نعرف كثيراً عن السبعيني الذي توفي، والآشوري وابن الخالة. كلّ هؤلاء يمرّون في حياة الراوي ويتركون فيها أخباراً بقدر مرورهم. فالرواية، رغم أنها تجتاز أحداثاً ودمارات وحروباً، ورغم أن بطلها لا يبقى بعيداً عن هذه العواصف، إلّا أن العاصفة تقدّم نفسها كجزء من سيرة، كأخبار يومية لبطلها، تنتفي منها كلّ فظاعتها وكلّ دمويتها وكلّ عنفها وكلّ مداها ومساحتها، لتتحوّل إلى مجرّد سيرة وإلى مذكرات وتفاصيل يومية في حياة خاصّة. يمكننا من هنا أن نطل على أسلوب رواية جبّور الدويهي وعلى مبناها. ثمة في الرواية هذا الميل إلى خصخصة الخارج، خصخصة العام والجامع والعاصف، وتحويله إلى حدث خاص وشخصي. أي أن الأسلوب يعمد إلى نوع من موضعة هذا العام، وإخماده جزئياً وشخصنته. ثمة كتابة تذكّر، من بعيد، بأساليب كتابة التاريخ في التراث العربي، أساليب يبدو فيها التاريخ أخباراً وروايات تقريرية وشبه أرشيفية. رواية جبّور الدويهي التي تتناول ظروفاً وأحداثاً عاصفة ودموية وفظيعة، تتناولها وترويها وقد انطفأ عصفُها وزالت دمويّتها وفظائعها، وبقي منها ما يمكن سرده كأخبار وتواريخ تُقال وتستعاد بلغة تقريرية، بلغة ليست سوى أصداء من السيرة الخاصة، سوى مذكّرات شخصية. يمكن، هكذا، استدعاء ما يبدو قريباً من كتابة اليوميات والمذكّرات، ما يتحوّل معه التاريخ إلى سيَر وإلى مذكّرات ويوميات.

> عمل يُذكّر، من بعيد، بأساليب كتابة التاريخ في التراث

(شاعر وروائي من لبنان)

جبّور الدويهي (ميشال خوري)

استعادة

عن الحرب الأهلية اللبنانية وما قبلها والربيع العربي وما بعده

حديث قديم مع ضيف الجزائر

قال لي جبّور الدويهي، حين التقيته قبل عشر سنوات: لعلّني نجحتُ في وصف العنف بموضوعية، وطمس الأسماء والإشارات إلى الشخصيات الحقيقية

محمد علاوة حاجي

في أيار/ مايو 2011، زار جبّور الدويهي الجزائر للمشاركة في واحدة من الندوات الأدبية التي كانت «الوكالة الجزائرية للإشعاع الثقافي»، التابعة لوزارة الثقافة، تُنظّمها بشكل منتظَم لم يستمرّ طويلاً. كانت تلك زيارتَه الأُولى إلى الجزائر، وكانت الأخيرة أيضاً.

في «دار عبد اللطيف»، حيث أُقيمت الندوة، استمع الحاضرون إلى كاتب لا يتخلّى عن نبرة صوته الخفيضة وهو يتحدّث بلُغتَين، العربية والفرنسية، عن ماضي لبنان وحاضره، أيْ عن رواياته التي يحضُر فيها قدرٌ واضحٌ مِن الالتزام لا يُخلّ بالشرط الفنّي. في تلك السنة، وصلَت روايتُه «مطر حزيران» إلى القائمة القصيرة في «الجائزة العالمية للرواية العربية»، وكانَ ذلك بالنسبة إلى كثيرين مناسبةً لاكتشاف هذا الصوت الروائيّ القادِم مِن شمال لبنان. أصدر الدويهي أوّل كُتبه في 1990، أيْ قبل أكثر من عشرين عاماً مِن تاريخ الندوة، لكنّنا في بيئةٍ لا تتعرّف إلى كُتّابها إلّا حين تُرفَق أسماؤهم بأخبار الجوائز أو المنع أو الموت.

بعد الندوة، وجدتُني مع الروائي اللبناني الذي راح يُحدّثني، مِن دون أن يتخلّى عن نبرته الخفيضة، عن المطر/ الرصاص الذي انهمر في قرية مزيارة بقضاء زغرتا، مسقط رأسه، حين كان في الثامنة مِن عُمره. في صيف 1957، تبادلَت عائلاتٌ مسيحية النّارَ داخل كنيسة بسبب الصراع على المال والسلطة في خضمّ الانتخابات النيابية. وفي غضون ثلاث دقائق فقط، سقط أكثرُ مِن ثلاثين قتيلاً.

كان ما حدث بمثابة «الدورة الأُولى» مِن الحرب الأهلية التي ستعصفُ بلبنان بعد قرابة ثمانية عشر عاماً مِن ذلك. استخدم جبّور الدويهي هذا التعبير وهو يُضيف بأنَّ «أبطال» تلك المجزرة تصرّفوا تماماً مثلما سيتصرّف فرقاء الحرب لاحقاً: هدمٌ ونهبٌ وقتل واختطاف، بل إنّهُم فكّروا في تطليق زوجاتهن اللواتي ينتمين إلى «المعسكَر الآخر».

كان عليَّ أن أسأله، حين علمتُ أنَّ عائلته كانت طرفاً في تلك الحادثة، إن كانت عودتُه إلى تاريخ محلّي بهذه الدرجة مِن الحساسية قد سبّبت أيَّ مضايقات له، فأجابني بأنَّ بعضهُم حاول تعقُّب أحداث الرواية وشخصياتها ليعرف ما إذا كانَ الهدف مِن العمل هو «تصفية حسابات عائلية»، لكنَّ المحاولة أتت بنتيجة سلبية: «لعلّني نجحتُ في وصف العنف بموضوعية، وطمس الأسماء والإشارات إلى الشخصيات الحقيقية».

نحنُ في 2011، في السنة الأُولى مِن ثورات «الربيع العربي» التي بدأت بتونس ثمّ امتدّت إلى مصر فليبيا فاليمن فسورية فالبحرين. وكانَ عليَّ أن أسأله، أيضاً، عن رأيه في ما يحدث، فأجابني: «إن كان الهيبيُّون، قد رفعوا قبل سنوات شعار «أوقفوا العالم نريد أن ننزل»، فإنَّ لسان الشباب العربي اليوم يقول: «أوقفوا العالم، نريد أن نصعد»، مضيفاً: «أنا واثق بأنه سينجح في إيقاف قطار التاريخ ليصعد، لأنّ إرادته في الالتحاق بالعالم ستنتصر في النهاية».

> لم يتخلّ عن نبرته الخفيضة وهو يتحدّث بلغتين: العربية والفرنسية

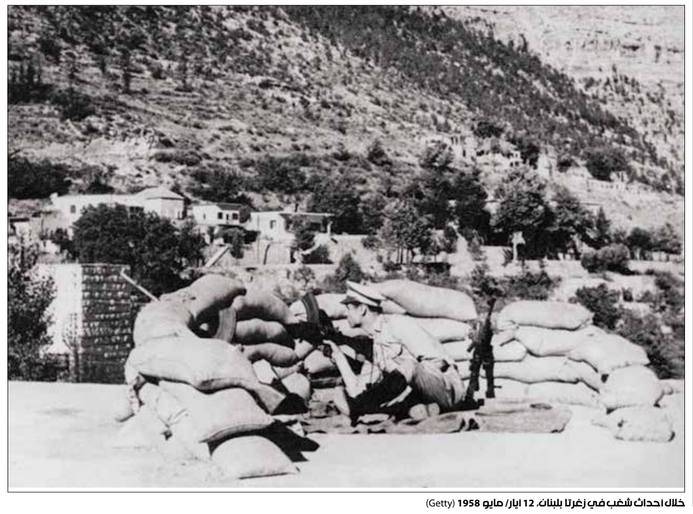

خلال أحداث شغب في زغرتا بلبنان، 12 أيار/ مايو 1958 (Getty)

فعاليات

تنظّم مؤسسة عبد المحسن القطّان في رام الله، عند السادسة من بعد ظهر اليوم، **جلسةً عبر تطبيق «زووم» مع الفنان تيسير البطنيجي**، تُحادثه فيها شروق حرب. يستعرض البطنيجي في اللقاء مساره الفني والتأثيرات الأدبية والفكرية والفنية على أعماله، كما يتوقّف عند معرضه المقام حالياً في باريس.

حتى نهاية أيلول/ سبتمبر المقبل، يستمرّ في غاليري «عبلة عبابو» بالرباط المعرض الجماعي **فرح**، الذي يضمّ أعمالاً لكلّ من **سناء أرقاس**، و**محمد راشدي**، و**كريستوف ميراي**، و**كريستيان مأمون**، و**هشام متيني**، و**خديجة الأبيض**، و**لوي دوتريف**، و**صوفي شاميتييه**، و**موران بن الحسن**، و**فلورانس أرنولد**. يقدّم المشاركون رؤىً تُراوح بين الشعرية والروحانية والواقعية حول معنى الفرح.

في «مكتبة فرنسا الوطنية» بباريس، يستمر حتى الرابع عشر من آب/ أغسطس المقبل معرض **ابتكار السوريالية: من الحقول المغناطيسية إلى نادجا**. يقدّم المعرض وثائق وصوراً ومخطوطاتٍ ولوحاتٍ تُتيح لزوّاره الاطّلاع على سيرة هذا اللون الأدبي الذي ازدهر في فرنسا خلال النصف الأول من القرن الماضي.

سردية الجرح الفلسطيني، عنوان ندوة تنظّمها، في الخامسة من مساء بعد غد الثلاثاء، «دار النمر» في بيروت، بمناسبة إطلاق كتاب بالاسم نفسه للباحث والصحافي **ميشال نوفل**. يشارك في الندوة عن بعد كل من الطبيب (الذي سبق أن تطوّع في غزة) **غسان أبو ستة**، والكاتب **الياس خوري**، ويديرها الباحث **وليد نويهض**.